الفصل الرابع

بيت المقدس والحروب الصليبية

زحفت جموع الصليبيين من أوروبا، تثير حميتهم خطب البابا فى اجتماعات مسيحية حاشدة، ويتقدمها رهبان ونساك يدفعهم حماس دينى متعصب(١).

عقد الباب أوربان الثانى مؤتمراً فى كليرمونت فى فرنسا، وخطب فى الناس خطاباً أثار مشاعرهم ، متحدثاً عما يلقاه الحجاج المسيحيون من عسف أولئك المسلمين الذين يحكمون بيت المقدس وفيها قبر المسيح . . ويحكمون فلسطين وفيها بيت لحم حيث ولد المسيح . فسالت الدموع وتعالت الآهات، وراح الناس يقسمون أن يهبوا لتحرير تلك الأماكن المقدسة من أولئك المسلمين.

وراح الباب يعد أولئك الذين نذروا أنفسهم لاسترداد القدس أسخى الوعود، ووعد كل من يترك أهلهوبلده ويمضى على وجهه قاصداً القدس صكا من صكوك الغفران . . وكان المسيحى حينذاك يعتقد أن هإذا حصل من الباب على صك مختوم بخاتم الكنيسة، غفرت ذنوبه وضمن جنة المقيم . .

وأصدر مؤتمر كليرمونت سنة ١٠٩٥ قراراً بإعلان الحرب الصليبية . . وتحركت الجموع الهائلة . . آلافا من الرجال والشبان، ومن الشيوخ والصبيان، وحتى من النساء، وتقدمهم نفر من القسس والرهبان.

(١) القدس ـ عبدالحميد الكاتب

فهناك «بطرس الناسك» يسير حافى القدمين.. وقد كست وجهه لحية شائبة شعثاء، وتسربل بملابس مهلهلة رثة، حاملا الإنجيل، رافعاً الصليب.. ووراءه حشود من الناس وقد حمل كل منهم ما تيسير له من سلاح، سيفا أو خنجراً أو درعا وسهاماً.. وساروا على أقدامهم وفوق دوابهم، من فرنسا وألمانيا و النمسا، وعبروا المجر وبلاد البلقان، متجهين إلى القسطنطينية حيث تقوم الكنيسة المسيحية الأخرى، كنيسة الرومان الشرقيين.

وهناك «والتر المفلس»، زعيم الغوغاء المعدمين، الذين كانوا يقاسون الفقر والجوع فى بلاد أوروبا، فقد أجديت الأرض وقلت الأرزاق بسبب الحروب التى لا تنقطع ولا تهدأ بين أمراء الإقطاع.. فسارت حشود من الدهماء الفقراء متطلعة إلى الشرق وما فيه من خيرات.. وقد أقنعهم زعيمهم والتر المفلس بأن لا خيار لهم إلا أن يموتوا جوعا فى أوروبا، أو يموتوا شرفا فى سبيل الصليب.. أما إن انتصروا فسيكون لهم نعيم الدنيا، وغفران الذنوب أيضاً..

وسار هؤلاء الفقراء، وهم يعيثون فى الأرض سلبا ونهباً.. ولم يبالوا بأنهم يسيرون فى بلاد مسيحية .. فنهبوا القرى وما فيها من أقوات.. بل قتلوا فى طريقهم آلافا من المسيحيين.. مما يدل على أن الحرب الصليبية كانت وراءها دوافع مادية ، ظهرت من هؤلاء الجياع الذين دفعتهم بطونهم، وظهرت على الأخص فى تجار الموانى الإيطالية الذين حملت سفنهم جموعاً أخرى من الصليبيين إلى

سواحل الشام وفلسطين، لأن أولئك التجار أرادوا أن يفتحوا طرق التجارة وأسواقها فى بلاد الشرق التى كانت أغنى وأرقى من بلاد أوروبا.

دوافع مادية ودنيوية كانت من بين دوافع الصليبيين، وإن كان شعارهم هو الصليب، ودعواهم أنهم يرحلون ويحاربون بإرادة الله واسم المسيح..

والتفت تلك الجموع عند أسوار القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية.. وكانت تعيش حينذاك تحت تهديد الأتراك السلاجقة، الذين هبطوا من أواسط آسيا، وأكتسحوا فارس والعراق والشام، واعتنقوا الإسلام وتحمسوا لنشره بحد السيف، وسيطر ملوكها العظام على العالم الإسلامى، فاتحد تحت إمرتهم فترة دامت قرنين من الزمن..

وكان الإمبراطور البيزنطى يمنى نفسه بأن يجد من هؤلاء المسيحيين القادمين من أوروبا عونا له فى محاربة الأتراك، فإذا به يجد جماعات من الدهماء والغوغاء، الذين لا يعرفون حمل السلاح ولا قدرة لهم على القتال.. فبعث إلى بابا روما رسائل يقول فيها، إن مصير هؤلاء المسيحيين هو الهلاك حتما على أيدى المسلمين.. أما إن كنتم تريدون حقا الوصول إلى بيت المقدس، فابعثوا جيوشا منظمة، وفرسانا مدربين، يستطيعون أن يتصدوا للأتراك المحاربين الأشداء.

وعندئذ هب الكثيرون من أمراء أوروبا وفرسانها، وكونوا فرقا محاربة مدربة على القتال، ومزودة بأوفر السلاح.. وزحفوا بهاعبر بلاد أوروبا قاصدين القسطنطينة، ومنها إلى القدس.

وكان معظم هؤلاء الفرسان من فرنسا، وكانت هذه هى أول حملة صليبية ناجحة، ولهذا كان المسلمون يظنون أن جميع الصليبيين مسيحيون.. ومن هنا أطلقوا عليهم اسم «الفرنجة».

* * *

لماذا فكر البابا، وفكر ملوك أوروبا وأمراؤها وفرسانها، فى القيام بالحرب الصليبية بعد أن انقضى أكثر من ستة قرون على دخول المسلمين بيت المقدس، وعلى فتح فلسطين والشام؟

لماذا لم يفكر الأوروبيون المسيحيون فى استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين طوال تلك القرون الماضية؟.. ولماذا قاموا الآن يحملون السلاح، ويقطعون الآفاق قاصدين بلاد المسلمين بعد أن استقر فيها الإسلام أجيالا تلو أجيا، وبعد أن صارت القدس مدينة إسلامية خالصة، وإن ظلت أبوابها مفتوحة تستقبل الحجاج من المسيحيين؟

هل كانت الكنيسة المسيحية راضية بذلك الوضع طوال هذه القرون، ثم استيقظت فجأة على صيحة من الباب أوربان الثانى فى سنة ١٠٩٥، فقرر المسيحيون الأوروبيون أن يزحفوا بجموعهم

وأسلحتهم ليستردوا ما ضاع منهم منذ أمد بعيد؟

لا... إن المسيحيين لم يكونوا قد نسبوا بيت المقدس منذ الفتح الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب، وهم قد رحبوا بالفتح الإسلامى فى أول الأمر ليخلصهم من حكم الرومان وطغيانهم ومظالمهم، ورأوا فى عمر بن الخطاب وفى «العهدالعمرى» الذى أعطاه لهم صورة عظيمة من التسامح الدينى ومن العدالة والاستقامة.. وبقيت كنائسهم محفوظه مفتوحة لصلاتهم وحجهم.

ثم مضى الزمن قليلاً، ورواح المسيحيون يتطلعون إلى استرداد بيت المقدس من المسلمين.. ولكن أنى لهم هذا، وقد ظل المسلمون دهراً طويلاً أقوياء أشداء، لا تقدر عليهم ولاتطمع فيهم أى من القوى الأجنبية؟.. فإن قوة المسلمين ووحدتهم وتماسكهم تحت خلافة إسلامية مسيطرة، مكن المسلمين من الاحتفاظ بكل أرض فتحوها فى صدر الإسلام، بفلسطين وبالشام وبالعراق وبفارس وبمصر.. بل مكنهم أيضاً من الانتشار فيما وراء هذه البلاد من آفاق مترامية، حاملين راية الإسلام ليرفعوها فوق بلاد أخرى من أقصى الغرب فى أسبانيا والبرتغال، وفى أقصى الشرق فى الهند والسند وتخوم الصين، وفى الشمال حيث كادوا يفتحون القسطنطينية ويقضون على ما تبقى من الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى عهد عمر بن عبدالعزيز.

وظلت هذه الوحدة قائمة، حتى بعد أن ضعفت الخلافة العباسية وزالت هيبتها.. فقد جاء الأتراك السلاجقة من أواسط آسيا، واعتنقوا الإسلام، وصاروا أكثر الناس حماسة لهذا الدين، وأشدهم جهاداً في سبيل إعادة وحدة المسلمين وتدعيمها.. وصارت الدولة الإسلامية، في عهد «ملكشاه» السلجوقي، أكثر اتساعا وأعظم قوة، مما كانت في عهد الدولة العباسية..

ثم دار التاريخ دورته، وجاء عصر الضعف والتفكك والتخاذل، وانقسم هذا العالم الإسلامي الموحد إلى دويلات وإمارات عديدة.. وكانت هناك سلطنة العراق، وسلطنة الشام، وسلطنة حلب، وسلطنة أطفهان، وسلطنة خراسان.. وأخذت هذه الويلات يكيد بعضها لبعض، وتنشب بينها معارك القتال.. وأخطر من هذا ظهور الدولة الفاطمية، شيعية المذهب، ممتلئة بالحركة والحيوية، فلا تكتفي بأن تحكم مصر وما وراءها من بلاد المغرب الإسلامي، ولكنها تتطلع أيضا إلى الشرق الإسلامي، تريد أن تفتحه وتبسط عليه سلطانها، مستعينة بالفرس الذين نبتت منهم جذور الحركة الشيعية، ومستخدمة من في الشام والعراق من دعاة الشيعة.

وفي خضم هذه الخلافات وما صاحبها من معارك، ظهرت جماعات دينيةتعتنق مذاهب غريبة، وتفرض نفسها على المسلمين وتحكمهم شراً وإرهاباً.. فهناك القرامطة يحكمون الجزيرة العربية، من مكة والمدينة إلى كل المناطق التي تمتد على الخليج العربي..

وهناك جماعة الباطنية، وتشتهر فرقها المعروفة بفرق الحشيشية أو الحشاشين، وقد سيطرت على بقاع كثيرة من الشام، وصارت لها قلاعها وحصونها، ولها أيضاً فرقها الإرهابية التى اغتالت عدداً لا يحصى من الأمراء والسلاطين!

وانقسم العالم الإسلامى، بل انشطر انشطاراً خطيراً . . وتجسم هذا فى الصراع والقتال الذى عم الساحة الإسلامية، وخاصة بين دولة السلاجقة ودولة الفاطميين. . وهو صراع بين قوتين سياسيتين، عسكريتين، تريد كل منهما أن تقهر الأخرى، وأن تفرض زعامتها على العالم الإسلامى كله. . بينما هناك قوة أخرى من الغرب ترى أن هذا الانقسام، وهذه الفوضى فى العالم الإسلامى، هو الذى يفتح لها الطريق إلى بلاد المسلمين. . ولهذا، بدأت الحركة الصليبية متزامنة تماماً مع حالة الضعف والتخاذل، وموجات الفوضى والاضطراب، التى غمرت العالم الإسلامى شرقا وغربا.

لو عبرنا عدة قرون من الزمن، ووصلنا إلى نهاية القرن التاسع عشر، لوجدنا أن التاريخ يعيد نفسه.

إن الغزوة الثانية للعالم العربى والإسلامى، وهى الغزوة الصهيونية قد بذرت فكرتها الأولى، وبدأت محاولاتها التمهيدية، فى وقت كان فيه العرب جميعا، والمسلمون جميعا، غارقين فى نوم عميق، تنتابهم فيه أضغاث الجهل والضعف والاستكانة. . وكانوا

جميعا لا يملكون من أمرهم شيئاً، فبلادهم تقاسمتها فيما بينها عدة دول أوروبية، بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا وإيطاليا.. ومازالت هناك دول أوروبية أخرى، ألمانيا والنمسا والجنوب.. وحتى ما كان مستقلا من البلاد الإسلامية، قد كان استقلاله صورة ووهما، فإيران المستقلة كانت خاضعة للنفوذ الروسى من ناحية، والنفوذ البريطانى من ناحية أخرى. وأما الدولة العثمانية الضخمة، فقد شاخت وترهلت وتفككت أوصالها، وصارت تسمى برجل أوروبا المريض، الذى يجتمع الأقوياء فى مؤتمراتهم ليتفقوا على تقسيم تركته فيما بينهم.

فى تلك الظروف، تحرك «المشروع الصهيونى» الذى نعرفه الآن. أما الفكرة الصهيونية، أى فكرة استيلاء اليهود على فلسطين، فإنها فكرة قديمة، وقديمة جداً لعلها ترجع إلى ذلك الزمن البعيد، حين خرج اليهود من فلسطين.. وقد ظل اليهود يرددون فى صلواتهم أنهم لا ينسون أورشليم، وأنهم إليها عائدون.. ولكن الأمر لم يتعد طوال هذه القرون دعاء فى الصلاة، وحلما غامضا بالعودة إلى جبل صهيون.

فلما صار العالم العربى والعالم الإسلامى إلى ما صار إليه، فى آخر القرن التاسع عشر، خرجت الفكرة الصهيونية من دائرة الصلوات والدعوات، إلى مجال التحقيق والتنفيذ.. ووضع أبو الصهيونية الحديثة، تيودور هيرتزل، فى سنة ١٨٩٧ على وجه

التحديد، كتابه «دولة اليهود» الذى كان بمثابة حجر الأساس فى المشروع الصهيونى الكبير.. وأخذ يكتب فى جريدته فى النمسا ويروج لفكرته ومشروعه، ويطوف العواصم، ويقابل الحكام والوزراء. وتعارض الحكومات فى إقامة الدولة اليهودية فى قلب العالم العربى والإسلامى.. أما العرب والمسلمون فلا وجود لهم فى حسابه!

تصور مثلا ما كتبه هيرتزل فى مذكراته، فى فصل عنوانه «مشروع العريش».. لقد ذهب إلى لندن وتفاوض مع الحكومة البريطانية، طالباً إعطاءه سيناء لينشىء فيها الدولة اليهودية، ويتخذ من مدينة العريش عاصمة لها.. ووافق رئيس الوزراء، ووزير الخارجية، ووزير رئيس وزرائها، بطرس باشا غالى، فقال له: إن السيادة على سيناء للدولة العثمانية، فاذهب إليها وتفاوض معها، فهى التى تستطيع أن تعطيك سيناء.. ولولا أن لورد كرومر، الحاكم الفعلى لمصر، اعترض على المشروع الذى يقتضى مد فرع النيل لرى سيناء، فى وقت كان فيه ماء النيل لا يكفى لرى أرض الدلتا والوادى الضيق، لتم إنشاء الدولة اليهودية فى سيناء، منذ سبعين سنة أو أكثر..

إن هذه الغزوات الأجنبية، صليبية كانت أو صهيونية، لا تنبت ولا تتحقق إلا عندما تضعف الأمة العربية وتهون.. وتصير حريتها وكرامتها وحقوقها سلعا تباع وتشترى، ويصير حكامها نهبا

للأطماع والأهواء والنزوات.. وعندئذ يسرى الضعف وتجرى الاستكانة فى عروق الحكام وعروق المحكومين جميعاً.

هكذان كان الأمر عندما قامت فكرة الحرب الصليبية قديما، وكذلك كان الأمر عندما قامت فكرة الصهيونية حديثاً..

* * *

ولنعد إلى الحرب الصليبية... فنجد أنها بدأت عندما تحولت الدولة الإسلامية الواحدة إلى عديد من الدويلات والإمارات.. فصارت المدينة الواحدة دولة، وصار الإقليم الصغير دولة، وصارت الغارات والمعارك بين هذه الدويلات الصغيرة هى محور حياة الحكام، وهى أيضاً مصدر مشاكل المحكومين وهمومهم..

وبلغ هذا التفكك أقصاه، فى نهاية القرن الخامس الهجرى، أو نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، وعندئذ قامت فكرة الحرب الصليبية، وبدأت جموع الصليبيين وجيوشهم تزحف إلى الشرق.

ووقعت معارك كثيرة بين المسلمين المدافعين والصليبيين المهاجرين، وقد انتصر المهاجمون فى كل معركة تقريباً، وانهزم المدافعون فى كل معركة تقريبا.. وكانت المدينة الإسلامية أو الدويلة الإسلامية لاتصمد أكثر من أيام أو أسابيع أو بضعة شهور.. فلم يمض أكثر من أربع سنوات، منذ أطلق الباب صيحته إلى الحرب الصليبية، إلى يوم أن دخل الصليبيون مدينة القدس.

منذ دخلوا القدس فى سنة ٤٩٢هـ، وكان هذا فى يوم من أيام شهر يونيه سنة ١٠٩٩.. سوف نرى أن الذين جاءوا يحملون الإنجيل ويرفعون الصليب قاصدين القدس، لم يتوقفوا عند القدس، بل راحوا ينتشرون فى أرجاء المشرق الإسلامى، ويقيمون فيه ممالك مسيحية.. فكانت هناك مملكة القدس المسيحية، ولها ملك من أوروبا وبطريق من أوروبا.. وكانت هناك ثلاث ممالك مسيحية أخرى فى المشرق.

ثم اتجهوا إلى مصر، لأن الهدف لم يكن مقصوراً على القدس.. بل الهدف الحقيقى هو ضرب الإسلام، وهزيمة المسلمين، وتمزيق العالم الإسلامى كله.